

محنة تراثنا

- الغزو الصليبي
- الصراع المذهبي
- الإعصار التناري
- عصور الظلام

أين ذهب هذا التراث كله ؟

سنة الحياة التي جعلت من عصور القوة في الدولة الإسلامية ، عصوراً ازدهاراً لحضارتها العلمية والفنية والعمرائية .

هي نفسها التي عرضت تلك الدور العلمية العامرة ، لمثل ما تعرضت له الدولة في عصور ضعفها وانحدارها .

وواجهت معها نهاية واحدة ، بحكم ارتباطهما بجمعية المصير الواحد .

وبدأ التحول مع نهاية القرن الرابع ، الذي هو في حساب المؤرخين عصر القوة للدولة الفاطمية بمصر والشام ، والدولة الأموية بالأندلس . وإن كان وهج الازدهار الساطع قد أخفى عوامل الضعف إلى حين ، ريثما نمت بذورها الكامنة في الأعماق تحت السطوح البادية :

فقوة هذه الدول الإقليمية ، كانت على حساب القوة المركزية للخلافة بالعراق . والخلابا المستقلة كانت تكبر وتتضخم ؛ على حساب الكيان العام الذي بدأ يضمحل ويضمحل .

ثم إن الدولات الإقليمية الطارئة كانت تحمل في ذاتها عوامل ضعفها وتدميرها ، بحكم ارتباطها بمصير القادة أو الأمراء الذين استقلوا بها وأقاموا لهم فيها دولات . والصراع المذهبي والشعوبي ، قد فتح ثغور الشرق الإسلامي لتيارات عاتية من الغزو الأجنبي ، صدها الشعب بما بقي له من قوة لكنها استنفدت طاقات الدولة وأسلمتها إلى ظلمات ليل طويل .

وإذ نركّز نظرنا فيما لقيت مكاتب بغداد والقاهرة وقرطبة ، نستطيع أن نلمح من بعيد ، مجرى الأحداث التي هزت كيان الدولة العام .

كما نستطيع أن نجد جواب السؤال :

— أين ذهب كل ذلك التراث الذي جمعته أمتنا في عصر قيادتها للحضارة ،

وعمرت دور كتبها بالملايين من ذخائره ؟

* * *

في حملات الغزو الصليبي ، تلفت من تراثنا ذخائر لا تعوض . إلى جانب ما حُمِلَ إلى الغرب منها مع الغزاة .

ثم لما انكسرت موجات الصليبية على سواحل مصر والشام ، بفضل الجبهة الموحدة في قلب المشرق الإسلامي ، لم تنجُ بقايا تراثنا من معارك الصراع المذهبي الذي احتدم ضرامه على ساحة الدولة الكبرى . فحيثما أُتيح لأصحاب مذهبٍ مجالُ نفوذٍ وسلطان ، ألحوا على كُتُبِ خصومهم حرقاً وإتلافاً ، على ما يسجله تاريخنا السياسي والمذهبي . ومع أن مثل هذا التدمير كان موجهاً بصفة خاصة إلى كتب المذاهب ، إلا أن لهب الحريق لم يكن يميز بينها وبين غيرها . وقد كان الحكام المذهبيين يريجون أنفسهم بإحراق الكتب جملة ، لتعذر فحص الملايين منها ، إلا أن يتاح لهم - في القليل النادر - مستشار رشيد ، يتقذ ذخائر التراث التي لا شأن لها بصراع المذاهب .

وفي هذا الصراع المذهبي ، لقيت مكتبة العزيز بالله ، وكل دور الكتب بمصر الفاطمية ، مصيرها الفاجع مع سقوط الفاطميين وذهاب سلطانهم بعد أن عانت معها فترة قلقٍ عاصفٍ واحتضارٍ بطيء .

كانت مكتبة العزيز بالله ، قد آلت إلى ابنه « الحاكم بأمر الله » فشيء إلى جانبها مكتبة أخرى سمّاها دارَ العلم ، جمع لها علماء العصر ونفائس الذخائر فكانت أعجوبة الزمان . ثم كان الحاكم بأمر الله ، هو الذي أغلق دار العلم وغدر بالعلماء فاهتز الصرح الشامخ ، أثراً لفتنة مذهبية بين رجال العلم والسياسة . وفي أيام الخليفة المستنصر بن الظاهر العلوي (٤٢٧ هـ) تمرد الجنود الأتراك يطلبون زيادة مرتباتهم التي قاربت نصف مليون دينار . ولما عجز السلطان عن إجابة مطالبهم أرغموه على بيع كنوز قصره التي جمعها آباؤه وأجداده منذ تأسيس دولتهم الفاطمية . وسطا الجنود على ذخائر الكتب في مكتبة العزيز ودار العلم والجامع الأزهر ، فحملوا منها ما حملوا وباعوه في الأسواق بأبخس الأثمان . واتخذت جلودها الثمينة نعالاً ! ونجت بعض الذخائر بفضل عدد من أهل القاهرة تطوعوا بشرائها ليصونوا تراث العربية والإسلام ، وتوزعت هذه الذخائر على المكتبات الخاصة وبعض الزوايا والمساجد الأهلية . حتى سقطت الدولة الفاطمية سنة (٥٦٧ هـ)

وأعيد فتح دار العلم ومكتبة الأزهر ، لكن نفرأ من رجال الدين أشاروا على « السلطان صلاح الدين » بإتلاف تراث الفاطميين من الكتب ، لأن فيها ضرراً على الإسلام . واستجاب لهم صلاح الدين فأمر بإتلافها ، فيما عدا ما أنقذه وزيره « القاضي الفاضل » ، وقد أذن له صلاح الدين في اختيار الكتب التي تخلو من الأهواء المذهبية ، مطمئناً إلى خبرته وعلمه وأمانته . وبهذه الكتب ، عمرت المكتبة الجامع الأزهر ، والمكتبة الفاضلية ، إلى جانب ما شيد من مكتبات ألحقت بالمساجد التي أقبل المسلمون على بنائها للعبادة ، فكانت في الوقت نفسه مدارس للعلم ، عمرت زماناً حتى دخلت البلاد مع العصر التركي في ظلمات الليل .

* * *

ونظر إلى المشرق ، حيث كيان الدولة مشخناً بالبحراج من أثر الفتن المذهبية والتمزق الشعبي وانتثار القوى ، فنلمح مع مطلع القرن السابع ، نذر الخطر تأتي هذه المرة مما وراء النهر ، في أقصى المشرق ، ثم لا تلبث جيوش « هولاء كو » أن تندفع كإعصار مارد . فتهوى حصون الشرق الإسلامي حصناً في إثر حصن . واجتاح الإعصار خراسانَ وفارس كلها ، ودمر فيما دمر ما لا يحصى من صروحنا العلمية وكنوز ثقافتنا ومعالم حضارتنا : في بخارى ونيسابور والرى وأصفهان . ثم اكتسح العراق فسقطت بغداد عاصمة الدولة الإسلامية سنة ٦٥٦ هـ وبدا ألا عاصم عندئذ من الهلاك ، وظن أن الإعصار سوف يندفع في طريقه لا يولى على شيء ، حتى يبلغ أقصى مداه عند أطراف العالم الإسلامي على ساحل المحيط الأطلسي ، مدمراً في طريقه كل تراث العرب والإسلام ، لولا أن تصدت له الجبهة الموحدة في مصر والشام . لتحوى العربية ديناً ودولة . وانكسرت أمواج التتار الزاحفة الهادرة ، عند عين جالوت .

وعكف رجال العربية والإسلام ، بعد الموقعة الظافرة الجاسمة في عين جالوت ، يفتشون بين الخرائب والأطلال عن ذخائر تراثنا في بيت الحكمة ، والمدرسة النظامية ، والمدرسة المستنصرية ، وغيرها من دور الكتب العامرة وروح العلم الشاحخة ، فإذا النار قد أكلت ما أكلت منها حتى شبعت فقتدِف بالباقي إلى النهر .

فيقال إن الكتب سدت مجرى دجلة ، وجاز الناس عليها ما بين شطيه كأنها جسر معقود .

* * *

لكن روح الوعي التي هزمت الصليبيين والتتار ، استطاعت أن تملى على أجدادنا دورهم الجليل في تلك المحنة التي ضيعت تراثنا :
جدّ رجال العربية والإسلام ، في جمع البقايا المتخلفة من بين الأنقاض ، وشهد التاريخ جنوداً منهم عاكفين على استنقاذ ما وعت ذاكرة معاصريهم من معارف عربية وإسلامية ، ذهبت فيما تلف من ذخائر تراثنا .

وعلى أيديهم استُحدث فن جديد في التأليف العربي هو فن الموسّعات الذي ازدهر بعد سقوط بغداد حتى عرف في تاريخنا الثقافي والأدبي بعصر الموسّعات ، دلالة على هذا اللون المستحدث من التأليف القائم على جمع المواد الثقافية فيما يشبه دوائر معارف عربية جامعة ، ملثوا بها فراغ المكتبة العربية الإسلامية التي تركها التتار أنقاضاً ورماداً .

إلى الشام ، أوى « ياقوت الحموي ، حين دهمه الإعصار التتاري وهو بخراسان في العشر الثانية من القرن السابع ، فهام على وجهه جائعاً ممزق الثياب يلتمس النجاة والملاذ ، حتى استقر به المقام في حلب ، يدوّن ما وعى من تراث العربية الذي شهد مصيره في مهب الإعصار ، ويقاوم الهموم والأوصاب ، ريثما ينقل ما في حافظته من معارف العربية وتاريخ رجالها حتى مات سنة ٦٢٦ هـ تاركاً لنا فيما ترك من تراثه ، معجميه الكبيرين في بلدان الشرق الإسلامي ، وتراجم أعلام رجاله .

وفي مصر ، كان « أبو العباس شهاب الدين النويري » عاكفاً على كتبه ودراسته حين صلك مسمعه نبأ سقوط بغداد ، فهجر كتبه وأهله وانطلق إلى الخط الأمامي بسورية مجاهداً في سبيل الله ، حيث تولى إمرة الجيش في طرابلس الشام ، فلما تم النصر بلخنود الجبهة الموحدة ، عاد إلى مصر ليستأنف الجهاد الآخر في رعاية الملك الناصر محمد بن قلاوون : مضى يجمع كل ما وعى عصره من معارف عربية ، فا انقضى أجله سنة ٧٣٢ هـ حتى كان قد أودع المكتبة العربية الحاوية ، موسعته

الكبرى « نهاية الأرب » التي دون فيها خلاصة المعارف والثقافات المعروفة في البيئة العربية الإسلامية إلى عصره : الثلث الأول من القرن الثامن الهجري .

وهنا وهناك وهناك ، على امتداد الوطن الكبير ، كان رجال أعلام متفرغين للجهاد القوي في إنقاذ تراثنا ، ومن بعدهم تتابع على الميدان خلف صالح ، حملوا الأمانة في صبر واستبسال . . .

وتركوا لنا تراثهم ، يسد الفراغ ويضيء المسرى في غبش الظلام الذي ما لبث أن تكاثف وادهم . . .

• • •

وهناك في أقصى المغرب ، لقيت مكتبة الزهراء ودور العلم بالأندلس ، نفس المصير الذي لقيته دور المشرق ، وإن اختلفت الأسباب :

مضى عصر القوة والوحدة للدولة الأموية في الأندلس ، وهبت ريح الفتنة فهزت قواعدها ، ومزقتها بين الطوائف ، وبدأت الشمس تجنح إلى مغيب ؛ ثم خبا الضوء ، وانطفأ المنار ، وسقطت دولة العرب والإسلام بالأندلس بين أيدي الإسبان الذين جنت بهم العصبية الدينية والقومية ، فألحوا على صروح العلم العربية تخريباً وتدميراً ، وقلبوا المسجد الأموي بقرطبة ، كنيسة كاثوليكية ، واتخذوا من مسجد طليطلة اصطبلًا لخيولهم ، وأحرقوا خزائن الكتب العربية على عادة العصر ، فلم يسلم مما جمعه أمراؤها وألفه علماءها من ألوف الذخائر ، غير ما حمل إلى أوروبا ، أو هاجر مع المسلمين إلى المغرب ، وبقية ضئيلة ظلت مختفية حتى هدأت العاصفة وارتوى التعصب الجامح ، فكانت هذه البقية نواة لمكتبة الإسكوريال بمدريد ، أشهر مكتبة بإسبانيا في العصر الحديث .

• • •

غربت الشمس عن ديار العرب والإسلام ، من أقصى المشرق الآسيوي إلى أقصى المغرب الإفريقي ، بحكم جبرية المصير الواحد لأمة واحدة . . .

وفي ظلمة الليل الغاشي ، هان تراثنا على قومنا وهم في سباتهم إبان العصر التركي ، وجهلوا قدره فلم يعودوا يرون فيه سوى ركام هين لا قيمة له .

كانت بقاياها التي سلمت من التدمير والضياع ، مبعثرة في خزائن للكتب بالمساجد . فجاء سلاطين آل عثمان فحملوا ذخائره إلى مركز الخلافة بتركيا ، مع ما حمل من كنوز الأقطار الخاضعة لها وثوراتها . . .

ولم يكن حرص السلاطين على اجتلاب هذه الثروة العلمية والأدبية عن تقدير لقيمة المخطوطات أو الانتفاع بها ، على نحو ما شهدنا من صنيع الخلفاء في عصور القوة والنهضة . وإنما حملوها إرضاء لشهوة التملك والاقتناء ، واستكمالاً لمظهرية السلطان . وكان أقصى ما قدروه من قيمة لها ، هو إرضاءه الوجدان الديني لجماهير الشعوب المتدنية ، التي يحكمها الترك العثمانيون باسم الإسلام . فراح السلاطين يبنون المساجد التي تحمل أسماءهم ، ويكدسون فيها الذخائر من تراث العربية والإسلام ، حيث بقيت هناك أكوماً تملأ السرايب الدهاليز ، دون أن تُعرف لها قيمة أو يرجى منها نفع .

حتى سقطت الدولة العثمانية ، فانتقلت كنوز تراثنا هناك على معابر الدردنيل واليسفور إلى الغرب المنتصر .

والذي كان قد بقي منه لدى الأقطار العربية ، تعرض في الليل الغاشي لمحنة التبيد ، عن هوان به على أهله ، وجهلهم بقدره .
والغرب إذ ذاك مفتوح العينين ، يجد في جمع هذا التراث الذي هان على أصحابه ، ويعرف من قيمته ما جهلوا .

• • •

كانت هذه الذخائر التي بقيت لنا ، مودعة في المساجد والزوايا ، بضاعة رخيصة لا تساوي وزنها ورقاً عند خدام المساجد الموكول إليهم أمرها . ورحم الله أجدادنا : وقفوا ما جمعوا من كنوز تراثنا الروحي والعلمي على خدمة العلم والدين ، وأودعوها بيوت الله ، وهم يحسبون أنها في دور العبادة بآمن من الضياع . ولم يدروا أن سوف يأتي علينا وعليها حين من الدهر ، يؤتمن فيه خدام المساجد والزوايا على هذه الكنوز دون رقيب ، فيبيعونها بالكوم لباعة الترمس والقولكي يغلفوا فيها بضائعهم قبل أن تظهر الصحف والمجلات وتؤدي هذه المهمة . وقد حدث شاهد عيان من أساتذتنا ، أنه رأى بعينه خدام مسجد المؤيد يملأ السلال

بنفائس المخطوطات ، ويبيعه لمن يطلبها بثمن بخس ، وربما قبل بعض القوت عوضاً عن الثمن .

وذكر « الكونت دى طرازي » أن خادماً يدعى « ابن السليمانى » عيّن فى منتصف القرن التاسع عشر ، خازناً لثلاث مكتبات كبرى فى مساجد مصر « وجعل له ديوان الأوقاف راتباً شهرياً قدره خمسة وعشرون قرشاً ، وكان الرجل يستعين على العيش يبيع قصب السكر . فجعل يقف فى زاوية تحت سلم مدرسة السلطان حسن ، ويضع بجانب بضاعته من القصب ، أكواماً من مخطوطات المكتبات الثلاث ، يبذلها لمن يدفع له القرش والقرشين » (١) .

ولم تكن حال المخطوطات فى بيوتنا بأحسن من حالها بين أيدي ابن السليمانى وأمثاله ، وقد مضى جامعوها وآلت إلى خلف لهم يجهلون قيمتها ويضيعونها بها . أذكر فيها أسمى من ذكريات طفولتى ، قاعة مظلمة مهجورة فى بيت جدّتى لأى بدمياط ، كُدمت فيها أكوام من المخطوطات معفرة بالتراب تعيث فيها العتة والقرضة . وبين حين وآخر ، كانت أوراق منها تؤخذ فينفض عنها التراب وتستخدم فى بعض الأغراض المنزلية الهينة دون تهيب أو تحرج . وربما تسلم صغار الأسرة - وأنا منهم - فحملوا منها وقوداً للحرائق الصغيرة التى جرت عادتنا على إشعالها فى الصباح الباكر من شم النسيم ، دون أن نعى ما بذل جدنا الكبير - وقد كان شيخاً للأزهر - من عمره وماله ، لهذا التراث الذى نعتب به ونلقى به فى لعبنا ، وقوداً للنار !

• • •

والذى حدث فى مصر ، حدث فى الشام والعراق والحجاز واليمن ، وسائر أقطار وطننا الكبير .

كتب الأستاذ « السيد محمد كرد على » ، رحمه الله ، فى خطط الشام : « ومن المصائب التى أصيبت بها كتب الشام ، أن بعض دول أوروبا ومنها فرنسا وجرمانيا وبريطانيا وهولاندة وروسيا ، أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر

(١) خزائن الكتب العربية فى الحافقين : ١٩٠/١ .

كتباً - من تراثنا - تبتاعها من الشام بوساطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين . وكان قومنا ولا سيما من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع ، بلغ بهم الجهل والزهد في الفضائل أن يفضلوا درهماً على أنفس كتاب ، فخانوا الأمانة واستحلوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقة ما عند غيرهم والتصرف به كأنه ملكهم .

« وحديثي الثقة أن أحد سماسرة الكتب في القرن الماضي ، كان يغشى منازل بعض أرباب العمائم في دمشق ، ويختلف إلى متولى خزائن الكتب في المدارس والجوامع ، فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة . وبقي هذا سنين يبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام ، ثم رحل بها إلى بلاده فأخذتها حكومته منه وكأفاته عليها » (١) .

وهكذا تمسرت أكثر البقية من كنوزنا إلى الغرب ونحن نيام ، وأبيحت ذخائر تراثنا للأجانب دون أن يجدوا من يصددهم عنها ، فذهبوا بها على مرأى منا ومسمع ، وكان كل نصيبنا من ثمن البضاعة قروشاً معدودات لحراس الكتب وخُدام دور العبادة ، وفرصةً للتندر بحمق أولئك (الفرنجة) المغفلين الذين تسهؤهم مخطوطات قديمة صفراء ، لا قيمة لها في حسابنا .

* * *

وإذ وصل بنا الحديث إلى عملاء الغرب وسماسرته الذين راحوا يجوسون خلال ديارنا بحثاً عن مخطوطات تراثنا ، نتمهل هنا لنشهد موضعه هناك ، وما له بين أيدي المستشرقين .

(١) خطط الشام : ١٩٨/٦ ط دمشق .